حكاية أمّ عصرية

[كاتبتان من اميرات الكتاب في الغرب والشرق تعالجان في هذا المقال مشكلة من أدق المشكلات الاجتماعية العصرية . ألا وهي مشكلة امرأة من بنات هذا العصر المتنور ، في طبيعتها ذلك الدافع الفطري القوي يدفعها الى السكون في كنف الحب وطلب البهجة والسعادة عن طريق حفظ النوع — ولكنها مع ذلك نزاعة الى الحرية في ظل رجل كريم يحترم لها رأياً ويرعى لها كرامة . فاذا تفعل اذا قلب لها الدهر ظهر المجن فلا هي تنعم بالحب ولا بالكرامة الموفورة ثم يزيد الدهر عنفاً وعتواً فيسلبها ولدها الذي غذته بدمها وانفقت في تعليمه « احر اعوام شبابها » — ماذا تفعل . طالع أيها القارىء هذا المقال فان فيه من الشعور الشفيق والفنون الحكيم ما يشجي النفس ويغذي العقل معاً — المقتطف]

نعتُ الأمّ بالعصرية قد يحتاجُ الى شيء من الشرح . إذ يقولون : ان المرأة كانت دائماً في صميمها كما هي اليوم . فقد خرج من جنسها النسوي أرق الامهات وأفضلهنّ وأرشدهنّ وأوعيهنّ لمعنى الامومة المقدسة وواجبها . كما خرجت من الجنس نفسه الامهاتُ الجاهلات المهملات الشريرات اللائي كنّ عنصر الغمّ والشقاء والاندحار في حياة أبنائهنّ

وهذا صحيح من حيث الغريزة النسوية الاصلية . على أنّ المرأة تطوّرت في ثقافتها وإدراكها وعواطفها عن طريق تطوُّر العالم ، وأحوالها اليوم غيرها بالامس ليس بمحض اختيارها وهواها بل بحكم الاحوال القاهرة . فبعد ان كانت في الماضي مضطرة إلى السكنى في بيت أبيها أو زوجها تراها الآن وفي مقدورها أن تكون ذات منزل خاص ، وعمل خاص ، ومكانةٍ تنالها بفضل جهودها وشخصيتها لا بفضل نسبها وثروة اسرتها . ومن هذه الحالة الجديدة تولدت افكارٌ جديدة وميزات جديدة في المرأة العصرية أمّاً وزوجة وعازبة

وتقدمت الكاتبة الفرنساوية « كوليت » ببطلةٍ من هذا الطراز في رواية صدرت قبل الحرب . وتلا رتها ثلة من الكتاب والكاتبات فوصفوا فتيات ونساء من اهل الطبقة المتوسطة (bourgeoisie) بانين مشقة العراك بين التقليد الموروث

في جماعتهن وبين معاز الحياة يسوقهن الى الاستقلال في الشؤون ، والاتكال على النفس ، واستثمار ما لديهن من موهبة او مهنة . الا انهن كن المحتفي بومئذٍ جمهور القراء والمستسلمات لعادات قومهن ، مهما قضى ذلك الاستسلام على آمالهن وبهما ضيق من جو حياتهن

اما الآن في الروايات كما في الواقع ، تراهن موفورات العدد اولئك الحسان المطلقات ، والارامل الحديثات السن ، والعاشقات المهجورات ، والفتيات الممتازات بثقافتهن وجاذبيتهن ، اللاتي تضطرهن رقة الحال في اسرتهن الى الجهاد والعمل منذ خروجهن من المدرسة ، لكسب قوتهن كالشاب سواء بسواء . وفواجع الكد والعناء تظلم حياتهن ، وتذيب مرائرهن وسط الحي الباريسية ، وهن بعد في ذلك العمر الذي تشعر فيه المرأة بالحاجة الى يد قوية تدير شؤونها ، والى قلب رجل تركن اليه فيكون لها الملجأ والمعين

في هذا العمر وهذه الحال ، قدمت لنا الكاتبة الفرنساوية « سيمون ماي » بطلة روايتها المؤثرة المدعوة « صغيري » (Mon petit) لان تلك البطلة ، واسمها آني ، كانت اماً . وحول نعمة الامومة وشقوة العواطف يدور موضوع هذا الكتاب المفعم الماً وحياة وصدقاً

***

ليست آني بالنفس الضعيفة والكائن [illegible] المغرور . ولا هي تلك « الانثى » المتخنثة شأن فئة من النسوة الضيقات الادراك الركيكات العواطف في مختلف المراتب . ولا هي من اولئك [illegible] المتخ[illegible] [illegible] لاشباع الاطماع [illegible] وراء الملذات واللاتي [illegible] الرقص والسمر [illegible] واللاتي يظهر البعض [illegible] المر[illegible]

[illegible] كانت [illegible] نساء اليوم . ورغم رقيها الفكري والخلقي كان يلح [illegible] « لان [illegible] والاحتماء في كنف [illegible] [illegible]

[illegible] على [illegible]

— « بنات جيلي ، تقول آني ، يطمحن في ان يكنَّ اكثر واشرف من أدوات للتوليد »

على ان هذا القول لا يمنعها من ان تكون خير الامهات

وقد بدأت آني حياتها بغلطة فادحة ، وهي الزواج الباكر . . والمرأة التي تنشد في الرجل صديقاً وشريكاً لا سيداً قلَّما استطاعت في سنّ التاسعة عشرة ان تميز بين السيد والطاغية . تزوّجت دون رغبةٍ بل بمحض عامل « التلاؤم الاجتماعي » . وتلك المرأة الودودة العطوف الصريحة الشجاعة ، حملت الى منزل زوجها مع اثواب العرس العزم الصادق على ان تكون لهُ رفيقةً صالحة ، و« اختاً نسويَّا » مخلصاً . والحب ؟ كلا لم يكن في قلبها ذرّة من الحب ، ولكن شيئاً باهظاً من « جوع الحب »

ولو كانت اكبر سنًّا او اوسع خبرة لاستطاعت الوقوف على عيوب هذا الرجل وخشونته قبل الزواج ، ولكانت ادركت انها لن تحتمل الحياة معهُ متغاضية عن عيوبه الاَّ اذا احبتهُ او كانت على كثير من الايمان والتقوى . وآني كانت ابنة جيلها في الارتياب الديني كما ان الحب لم يكن يدفعُها نحو زوجها .

ولم تكدْ تمرّ الايام الاولى على زواجها حتى ألمّت آني بكلّ ما كان عليها ان تعرفهُ خلال الخطوبة . عرفت خلق زوجها وعرفت انها « لن تحتمل » . وقد زاد في شعورها ذاك ان زوجها لم يكن ينظر اليها كخليلة وشريكة ، ولم يعاملها معاملة العطف والحنو . كان شغوفاً ولكن بجمالها ولم يتخيّل ان وراء الهيكل الجسدي فكراً وقلباً وعواطف . بل انكر ذلك صراحاً وآذنها فيما كانت محبتهُ أنفس ما لديها ، وجاهر — كثيراً — باحتقاره للمرأة التي تزعم انها تطمع في غير الجمال الجسدي وإرضاء الرجل عن سبيله ، وان منتهى ما يجب ان تصل اليهِ من الافكار هو انها اداة للمسرات ووسيلة للتوليد

لم يكن يفتهُ في خشونته وكثافته ، ألمها وحبوط آمالها . فكان بروفهُ ان يُخضع هذه الضحية المتاززين « قطيع النساء » والتي كانت أعزّ نفساً من ان تبثّ الشكوى او ان تفرّج من كربتها بالبكاء . وانقضت ثمانية شهور وهي تظنُّ ان الوقت والعادة يخففان من نكدها وشقوتها . بيد أنها غدت ثائرة على هذا الرجل متمردة [illegible]

[illegible] ليتها حرّة تمضي الى باريس فتعمل لفن [illegible] و [illegible] الشخصية إعلاء تعرف انها ذات استعدادٍ لهُ ! بل ليتها فكّرت في ذلك قبل هذا الزواج

الاخرق ! إنها فكرت ان السعادة أيسر ما تكون في الحياة الزوجية ، ولكن مع الزوج الذي لا يسهل دائماً الاهتداء إليه لمن هي ذات نفس كنفسها المتوهجة المشتاقة !

***

هنا يأتيها طارئ غير منتظر . إذ تمرض والدتها وتشرف على الموت . فتسارع إلى خدمتها وتمريضها وتحيطها بجميع مظاهر الحب والحنان . وفي اثناء ذلك تدرك حقيقة ألية وهي أنها في طريق . . . الامومة

فماذا عساها تصنع الآن هذه المرأة ابنة جيلها المثلى بيقظة النفس وشبوب الفكر ورقة القلب ، وفي الوقت نفسه سليلة أمهات وجدات ضحين بحياتهن كلها في سبيل الولد وهن لا يعرفن معنى الشخصية المستقلة ، واستسلمن دون مناقشة لقيد الاستمرار فكن « عبدات للرجل وأسيرات قانون الزواج الذي لا يرحم » ؟

آني المتمردة على ذلك الزواج الممقوت ، تُصبح حيال الامل الجديد إنسانة متبصرة وجيعة . تشعر بارتباطها بالكائن الصغير المخبوء بين جوارحها ، الذي أبقته للحياة دون التماس منه ودون علم منها أو رغبة . تشعر بأنها مسؤولة ليس عن حياته الجدية فقط ، بل عن حياته الادبية خصوصاً . وبأنها هي الوالدة عليها ان تكون للصغير « امًّا » بأصدق معاني الامومة وأنبلها

أتعود إلى زوجها ؟ إذاً سيسيطر ذلك الرجل الفظ على الحياة البريئة الجديدة ، ويحيطها بجو من كثافته وحماقته ، ويطبعه بطابعه المشؤوم ، وينشئه نشأة لا يدرك عقله المشوه السقيم ما فيها من المفاسد والسيئات . سيحدّ انطفاء ليكون نسخة أخرى . . . إذن ما العمل ؟

أتسعى إلى الطلاق ؟ إنّ في الطلاق حلاً ... ولكن فيه تفقد الطفل ... صغيرها الذي ينتزعه منها القانون بقوته القاهرة ليضعه تحت رحمة والده ... في تربيته وتنشئته . ما الحيلة إذن ؟ واذا بخاطرة تفاجئها : ... لا ... أجل الهرب بهذا البرعم الانساني الذي يجهل زوجها وجوده . الهرب ليكون خطتها لها ولنسلها ... الحياة الحرة الصالحة الجلية . فتجمع ... من النقود ... عن والدتها وتتوجه إلى باريس ... فيها والملايين . وفي ... الحالة الفسيولوجية التي تستدعي الرفق والوقاية وعناية المحبين ، تعيش آني وحدها في

غمٍّ وتقتير ، وتفق من حبها وشجاعتها لتضمن لولدها القوت والحرية . . .

***

كن كما شئت قويَّ الارادة ثبت الجنان ، ان الدموع سترطب جفنيك غير مرة وانت تساير هذه المرأة في حياتها الباريسية إذ هي تجدُّ في طلب العمل فلا تلقى إلاَّ الخيبة المكررة والهزيمة اللاجّة؛ وإذ هي تبكي يائسة بين جدران غرفتها الحقيرة ، وإذ تقاسي آلام الولادة وحدها في المستشفى دون وجه صديق ينحني عليها ، او نظرة شفيقة تخفف من بلواها . وإذ تعود إلى السعي والجدّ فتراها بائعةً في مكتبةٍ قديمة ، ثم عاملةً في تجليد الكتب بالاشتراك مع صديقة لها . ثمّ ستشهدهُ بالحبّ الوجيع اليائس — الحبّ الاول ! — الذي تغالبهُ وتضحي بهِ لاجل طفلها . ثم عاملةً ليل نهار تقدم لطفلها حاجتهُ . ثم مهزومةً مرةً اخرى بخداع « صديقتها » التي سلبتها كلَّ ما تملكهُ . وهي التي كانت بالامس من ربات الملاحة والكياسة والاناقة ، تمرُّ اليوم أمام نافذة دكان فتستوقفها هيئتها المنكسة في مرآةٍ صقيلة قاسية فاذا بها :

« قدٌّ نحيل سقيم يكسوهُ ثوب قاتم في الاصل ولكنهُ بهت بتتابع الاستعمال وإذ تقع عليهِ اشعة الشمس يبدو كالحاً أغبر . وحذاء يظهر التشقق في مختلف نواحيهِ . وبشرة تحدّث عن شعاع المصباح الاخضر الذي ينير المكتب الذي تشتغل الآن فيهِ ، لان ذلك المكتب مظلم حتى في رابعة النهار . لم تكن تنتبه قبل هذه المرة لتبدل هذا الوجه ، وجهها ، حيث دلائل التعب تقضي على محاولة الابتسام . هذا وجه عابس متكمش ؛ وجه اللاتي يتكبدن الغمّ والهمّ في عمل محتوم متواصل . يعملن في الخارج لكسب القوت ، ويتممن في الداخل بكل ما يقتضيهِ المنزل من خدمة وتدبير وتقتير . ذلك العمل [illegible] الذي لا اختيار فيهِ ولا لذة ، [illegible] يحمل الفكاك بالإد[illegible] [illegible] القوى ، ويقضي على الملاحة ، ويحوّل الشباب الى شيخوخة باكرة . . . »

لم يكن [illegible] راحة ولا الوقت الكافي لمباشرة ولدها والاشتراك في العابهِ و[illegible] بقبلاتهِ . لان ساعات راحتها كانت قليلة لا تقوم بمقتضيات مزاجها واعصابها . ولم يكن الصغير يراها الا منهكة ، كئيبة [illegible] هي التي كانت تنتصر [illegible] لاحيوية [illegible] امامها [illegible] في الماء وعلاقتها الفردة [illegible] . . .

***

تلك [illegible] الكئيبة — وقد جاز ولدها [illegible] العاشرة — يفدُ اليها رسول

يخبرها بأن زوجها علم بحالها ومقرّها وبأن هذا الولد ولده . فيريد ان يستقدمهُ اليهِ ليعنى بتنشئتهِ على ما تقتضيهِ مكانتهُ الاجتماعية وينيلهُ حظهُ من الثروة وعيشة الهناء والرخاء. وعلى ذلك فهو يطالب بولدهِ ويطلب الطلاق منها ليتسنى لهُ الزواج من غيرها

... الا ان القدر اقدر من شجاعة الشجاع ! آني تملّ ذلك لانها رغم جهدها وتضحيتها ، لن تفلح في ان تجعل هذا الولد اكثر من عامل بسيط ، وتصارح نفسها بانها لا يجوز لها ان تسقطهُ من مرتبتهِ وتقضي عليهِ بالفقر والحرمان ... فماذا هي فاعلة تلك الام التي عاشت لولدها أحرّ أعوام شبابها ؟ أتكابر وتتمنع وتحرم الصغير مما قد يلومها عليهِ في المستقبل ، وعقّها لاجلهِ ؟ أم تسلّمهُ فتُحرم هي منهُ ولا تراهُ إلاّ في مواعيد معيّنة ولحظات معدودة كأنهُ شخص غريب عنها ؟ تفكّر طويلاً وتفكّر كثيراً فتعزّي نفسها بأنها طبعت ولدها بطابعها في عمرٍ يستبقي تأثراته مدى الحياة فلا يتغلب عليها طابع آخر . . . وتدرك ان واجبها الباشر في الاذعان ... فتذعن . . .

وماذا عساها تصنع الآن وقد انتُزع منها الامل الوحيد وانحلّت الرابطة التي تصلها ببني جنسها ؟ أتنتحر ؟ قد يعمد إلى ذلك بعض أبطال الروايات ونفرٌ من مخذولي القدر — أحياناً . ولكن آني السانة حيّة ، لا بطلة رواية فحسبُ ، وامرأة شجاعة نبيلة رغم الخيبة والانكسار

إنّ المرأة التي لا تزال شابّة مليحة ذات قلبٍ رحب الجوانب ، وثّاب النزعات وذات ذكاء نادر ونفس كثيرة الخوالج ، طموحاً إلى شرب كأس الحياة والسعادة ، تلك المرأة التي لا عائل لها ، ولا ملجأ ، ولا منزل ، وقد انتُزع منها وحيدها — يبقى لها ما قد يافتها به الحظ الجيورد

تيّار قويّ جديد من بحر الحياة يغمرها فتلقي مقدورها ، وهي الراودة الحزينة الشقيّة ، ان لا تستسلم لهُ بطانية التعزية والمؤاساة ... أو على الاقل الـ ـيان ؟

***

هذا هو الكتاب الحيّ المؤثر الذي شغلت مطالعتهُ ساعات من اسبوعي هذا الفاصل بين الخريف والشتاء . فعرفت فيهِ الى كاتبة شابة بارعة وصف تتحقق ... وفنّ ضراً أ وجيعاً من نساء اليوم ومظهراً حقيقياً من طغيان الاقدار وروائعها في ... الحياة وجزرها . . .

«مي»